المدرسة العادلية
والمجمع العلمي العربي

الأستاذ عبد الهادي هاشم

في دمشق الخالدة أحياءٌ جميلة كثيرة ، ولعل من أقدمها وأقدسها حيٌّ (باب البريد) الذي نوّه به الشاعر عندما قال :

حوِّلْ ركابك عن دمشق فإنها بلدٌ تذِلُّ له الأسودُ وتخضعُ
مابين (جابيها) و (باب بريدها) قمرٌ يغيب وألف شمس تطلع

ضمَّ هذا الحيُّ معالمَ شواهدَ على ماضي دمشقَ الأغرّ الحافل ، ومجدها الأعزّ الباهر ، كجامع بني أمية ، وضريح السلطان صلاح الدين ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة العادلية ، ومدارس أخرى كثيرة يطول تعدادها .

وسيدور حديثي في هذه الأمسية على واحدة من هذه المدارس ، في غابرها وحاضرها ، وأعني المدرسة العادلية ، مقر المجمع العلمي العربي اليوم . وقد أتحدث في فرصة أخرى عن جارتها ورفيقتها : المدرسة الظاهرية ، حيث تقوم دار الكتب الوطنية .

بدأ بانشاء المدرسة العادلية ملكٌ حبيب الى قلوب الدمشقيين منذ ثمانمائة سنة هو نور الدين بن زنكي . ثم جاء الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي فزاد في رقعتها ، وغيّر بناءها ، وأرادها مدرسة ضخمة فخمة جامعة . ولما أعجلته المنية عن اتمام ذلك قام ابنه الملك المعظم باتمام عمارتها ، ونقل جثة والده اليها ، وأودعها قبة هذه المدرسة .

● حديث للأستاذ عبد الهادي هاشم رحمه الله ، بثته الاذاعة السورية في مساء يوم ٢٤ / ٥ / ١٩٥٧ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان الملك المعظم هذا ملكاً ولا كالملوك . كان عالماً فاضلاً ، محققاً حافظاً ، سعى في نشر العربية ، وشجع الناس على حفظها واتقان علومها ، وأجرى على العلماء الجرايات والأرزاق الراتبة ، وأخذ بيدهم وأكرمهم ، وكرّمهم ورعاهم ، ودعاهم الى الانصراف الى التدريس والترجمة والتأليف ، ولاسيما تأليف معجم عربيّ شامل ، يضمّ ماتوزعته كتب اللغة الموثوقة . وأنشأ في هذه المدرسة ـ التي سميت فيما بعد المدرسة العادلية على اسم والده ـ داراً للمطالعة عامرةً بالكتب التي وقفها عليها .

وقد غدت العادليةُ منذ عمارتها مثابة لأعلام العلماء ، ومثوى لأفاضل المؤلفين ، يدرسون فيها ويدرّسون ، ويَقْرؤون ويُقْرئون ، ويروون ويؤلفون . وإنا لنعلم أسماء الكثيرين من جلّة العلماء الذين نزلوها ، كما نعرف أسماء بعض الكتب التي أُلفت فيها . فمن هؤلاء العلماء ابن مالك النحويّ الشهير ، كان يدعو الناس الى دروسه ، وينادي على شباك العادلية : القراءاتِ ، القراءات ، العربية العربية .

ومنهم ابن خلّكان الذي أقام في العادلية أمداً من الزمن ، وأثرت عنه فيها أخبارٌ طريفة ، منها أنه كان اذا أرِق في الليل نزل من غرفته وجعل يطوف حول بِرْكة المدرسة وهو يتغنى :

أنا والله هالكٌ آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

ومن هؤلاء العلماء ابن خلدون ، فخر علماء العرب في القرن الثامن الهجري ، وأحد ماهدي علم فلسفة التاريخ ، وعلم الاجتماع في العصر الحاضر .

ومن الكتب العظيمة التي ألفت بين جدران المدرسة العادلية كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلّكان ، وهو من أفضل كتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التراجم وأوثقها . ومنها كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) النورية والصلاحية لأبي شامة ...

وفي تاريخ هذه المدرسة أيام مشهودة مشهورة ، منها يوم تدشينها سنة ٦١٩ هـ ، وقد وصفه بعض المؤرخين يومذاك . وكان مما قاله : « حضر السلطان المعظم ، فجلس في ايوان المدرسة ، وجلس عن يمينه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري ، ثم شيخ الشافعية فخر الدين بن عساكر ، ثم القاضي شمس الدين الشيرازي ، ثم القاضي محي الدين بن الزكي . وجلس عن يسار السلطان الى جانبه مدرّس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري ، ثم سيف الدين الآمدي ، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة ، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر . وجلس مقابل السلطان تقيُّ الدين بن الصلاح وغيره . ودارت حلقة صغيرة فيها أعيان المدرسين والفقهاء ، والناس وراءهم متصلون ملء الايوان . وكان مجلساً جليلاً .... واشترك السلطان مع الجماعة في الكلام العلمي .... » .

تصبح العادلية منذئذ قبلة طلاب العلم وبغاة المعرفة ، يُهْرَعون اليها من أرجاء الأرض : قاصيها ودانيها ، في مشرقها ومغربها ، يملؤون رحابها ، ويعمرون بأصواتهم وقراءتهم أنحاءها ، ولهم دويٌّ كدويّ النحل ... ولكن دولاب الزمن يدور ، ويرين على عيون القوم سِنَةٌ من جهلٍ وتواكلٍ وفتور . وتصبح المدرسة العادلية في أواخر العهد العثماني داراً متداعية الأركان ، متهدّمة الجدران ، فيهاقاضٍ يسكنها ولا يعمرها ، وحجراتٌ خاوية خالية ، وباحة ترتع فيها الهوامّ وسائمة الحيوان .

حتى اذا جلا الترك عن هذه الديار ، وقامت الحكومةُ العربيةُ فرعت اللغة وسَدَنَتَها ، جعلت العادلية مقراً للمجمع العلمي العربي ، وأذكت شعلة كاد ينطفىء أوارها ، وشدّدت عزائم أوشكت أن تَنِيَ وتفتُر ، وأرجعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدرسة الى سابق عهدها : مثوى للأدباء ، ومجمعاً للعلماء ، وحصناً للغة وحرزاً لكنوزها الغالية .

وفي الثلاثين من شهر تموز عام ١٩١٩ م اجتمع المجمع العلمي العربي لأول مرة في المدرسة العادلية ، وعقد جلسة مشهودة فيها ، وقد حضرها طائفة من أعضائه ، ذهب بعضهم من بعدُ الى لقاء وجه ربه ، وأمدّ اللهُ ، وله الحمد والمنة ، في عمر الآخرين . فممن حضر يومذاك الأساتذة : محمد كرد علي ، وأمين سويد ، وسعيد الكرمي ، وأنيس سلوم ، وعبد القادر المغربي ، وعز الدين علم الدين التنوخي ، وعيسى اسكندر المعلوف ، وديمتري قندلفت . وفي هذه الجلسة تقررت الاستعانة بأعضاء شرف ، منهم السادة : عبد القادر المبارك ، ومحسن الأمين العاملي ، وفارس الخوري ، وعبد الرحمن الشهبندر ، ومرشد خاطر .

باستقرار المجمع في العادلية عاد الى هذه المدرسة شيء من جلالها القديم وإشعاعها النيّر ، وأضحت مرة ثانية ندوة للعلماء يتباحثون فيها ويتذاكرون ، ويؤلفون وينشرون . فما يكاد يمرّ يوم لايدخلها فيه عالم عربي أو شرقي أو مستشرق أو مستعرب ، يلقى أعضاءَ المجمع ، أو يسأل عن كتاب ، أو يستفتي في معضلة ، أو يستزيد علما .

والمجمعُ دائبٌ منذ يوم اقامته على بلوغ أغراضه التي أُنشيء من أجلها ، ومنها البحث في علوم العربية وآدابها ، وجعلُها تتسع للعلوم والفنون ، وتتجارى مع اللغات الحية الأخرى . ومنها العنايةُ بالكتب مما خلّف الآباء والأجداد الذين عنا لعزتهم وجهُ الدهر ، ولكن عدت النوازل والخطوب على كتبهم وآثارهم ، فأخذ المجمع يحفظها ويحققها وينشرها . وتصدر المطابع في كل شهرين تقريباً كتاباً قيّماً نظر فيه بعض أعضاء المجمع ، وأعانوا على تحقيقه ونشره . ولعل أجلّ عمل تصدى له في هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الميدان في عهده الأخير إقدامُه على نشر كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، وهو أثمن ماكتب في تاريخ هذه الديار . وتبلغ أجزاؤه الثمانين . وهو ـ على عظم خطره وجليل قدره ـ لايزال مخطوطا ، لم ينشر منه إلا قليل لاينقع غُلّة ، ولايشفي علة . ويقوم الآن رهط من أفاضل المحققين باعداد أجزائه للنشر ، وقد ظهر بعضها محققاً تحقيقاً يرضى عنه العلماء الأثبات .

وإلى جانب هذه الكتب التي مافتىء المجمع يوالي إنشارها منذ سنوات ، يصدر المجمع منذ نشأته مجلة سلخت ستاً وثلاثين عاماً من عمرها ، وجاوزت صفحاتها عشرين ألفاً ، ضمت مقالات وبحوثاً قلَّ أن يوجد في مجلة أخرى مثلها في موضوعها .

وبعد ، فَمراد الحديث عن المجمع رحب فسيح . واني لأرجو أن يكون في ماذكرته عنه غنيةً للمتخفف العجل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net